رحلتي إلى شرقِ إفريقيا/ وذكرى واقعة/ مع عيدي أمين

لقد سَنَحَتْ لي فرصةٌ في مشروعٍ وجولةٍ خيريةٍ/ لزيارةِ أربعِ دولٍ في شرقِ إفريقيا، وبعدَ أنْ تعرفتُ على هذه الدولِ عن قرب/ أحسستُ بتأنيبِ الضميرِ/ واهتزتْ مشاعري/، بلْ وقعتُ في حَيْرَةٍ ودهشة.

ومما أثارَ الحَيْرَة في نفسي/ وجرحني في أعمقِ أعماقي/ أنَّ هذهِ الدولَ تُعَدُّ من أغنى الدولِ موارد/، فأرضها مليئةٌ بالخيراتِ وتملكُ الكثيرَ من المصادرِ الطبيعية،/ ومع هذا فإنك ترى شعوبَها تعيشُ في فقرٍ مُدْقِعٍ وحرمانٍ شديد،/ وترى المحتلينَ فيها قد أسّسوا إمبراطورياتِهم هناك.

وما إن رأيتُ هذا وعرَفتُ بعضَ الحقائقِ/ حاولتُ كثيرًا أن أُمْسِكَ بقلمي، وأن أكتبَ بضعةَ سطورٍ تعبّرُ عن مشاعري/ ولكني لم أستطع البدء.

أنا من إحدى قرى منطقةِ (أُوفْ) في مدينةِ طِرَابْزُون التركية،/ وهي قريةٌ منتجةٌ للشاي، ففي قريتي يُحصَد الشاي ثلاثَ مراتٍ في العام،/ وقد يُحصد أربعَ مرات لبعضِ السنواتِ في النادرِ،/ ونحنُ نبيعُ هذه المحاصيلَ للحكومةِ أو للشركاتِ الخاصةِ،/ وهذه الأراضي التي يَنبتُ فيها الشاي ثلاثُ مراتٍ في السنة/ – بالرغمِ من صغرِ مساحاتِها وضآلتِها –/ لم تتركْ للفقرِ في هذه المنطقةِ مجالًا.
أما المناطقُ التي ينبتُ فيها الشاي في أَثْيُوبْيا وأُوغَنْدَا وكِينْيَا؛/ فقد علِمتُ أنه يُحصَدُ فيها الشاي من ثماني إلى عشرِ مراتٍ في العام،/ أما في تنزانيا فيُحصَد فيها الشاي/ **اثنتين وعشرين** مرةً في العام،

وعندما سمعتُ بهذه المعلومةِ من المترجمِ ظننتُ أنه أخطأَ في نقلِ الكلامِ،/ ولقد أعَدْتُ عليه السؤالَ ثلاثَ مراتٍ: أهيَ اثنتان أم اثنتان وعشرون،/ ومع هذا لم أثقْ بترجمتِه من الإنجليزية، فسألتُ من يعرفُ العربيةَ هناك،/ فأكّدَ قائلًا:/ نعم إن تَنْزَانْيَا يُحصَد فيها الشاي **اثنتين وعشرين** مرةً في العام !

لقد قامَ الفِرَنْسِيُّونَ باستعمارِ جزءٍ من الدولِ الإفريقيةِ/ وقامَ الإنجليزُ باستعمارِ القسمِ الآخَرِ، والأكبرِ منها/ ولا يزالون يستعمرونها./ وبالرغمِ من أن هناك تشابهًا في طَرِيقَةِ استعمارِ الدولتين/ إلا أنه يمكنُنَا القولُ بأنَّ الإنجليزَ أكثرَ احترافًا ومهارةً ومكرًا..
لو حاولنا أن نَذْكرَ مثالًا دونَ اللُّجوءِ إلى ذكرِ التفاصيلِ،/ فإنه يمكنُنَا ذكرُ خُطةِ الإنجليزِ في استعمارِ أُوغَنْدا/ وكيف سارتْ ولا زالتْ تَسِير..
إن أُوغَنْدَا دولةٌ يعيشُ فيها المسيحيون مع المسلمين/ ولَوْنُ بشرةِ سُكانِها أسود، ولا يوجدُ تشابهٌ/ بينهم وبين بشرةِ الإنجليز./ ولا يمكنُ لِخُطةٍ يُبَاشِرُها الإنجليزُ بأنفسهم أن تكونَ طويلةَ المدى،/ وحتى لو نجحوا فإن الخطةَ قد تكونُ شاقةً وخطيرةً؛/ إذْ يجبُ اختراعُ خُطةٍ لا تُخاطِرُ بمصالحِ الإنجليزِ على المدى الطويل/ لا في لونِ البشرةِ / ولا في الديانةِ التي **يعتنقُها** الوسيطُ الذي سيعملُ في إنجاحِ الخُطةِ.

يجبُ إيجادُ وسيطٍ له لونُ بشرةٍ ليست سوداءَ ولا بيضاءَ/ وله دينٌ ولكن/ ليس **مسيحيًّا ولا مسلمًا؛**/ لأنّ من يَحملُ هذه المواصفاتِ قد يخاطرُ بمصالحِ الخُطةِ على المدى الطويل،/ يجبُ أن تسيرَ خُطةُ الاستعمارِ دون **أن يعرقلَ** سيرُ عجلةِ نجاحِها أيًّا كان.

لقد تم اختيارُ الأراضي الخصبةِ بعنايةِ فائقةٍ بعد استعمارِها/ وتم تأسيسُ شركاتٍ سُجلتْ لحسابِها هذه الأراضي/ وتم تسليمُ إدارةِ هذه الشركاتِ لأشخاصٍ تم اختيارُهم بعنايةِ فائقةِ كذلك/ بعد تدريبِهم وتعليمِهم بشكلٍ خاصٍ/ على الخُطةِ والطريقةِ التي سيديرون بها هذه الشركاتِ من الهندوسِ والبوذيين ذوي البشرةِ السمراءِ من الهندِ..
الهندوسُ والبوذيون ليسوا بيضًا ولا سودًا/ وليسوا مسلمين ولا مسيحيين،/ اختيارٌ مناسبٌ جدا من أجلِ الجميع..

لو أنهم بيضٌ/ فلن يجدوا قبولًا / ولو أنهم سودٌ/ فإن إيجادَ الطريقِ الأمثلِ للتعاملِ صعبٌ وخطِرٌ جدا../ لو أنهم مسلمونَ فإن التوازنِ سيختلُ حتمًا/ ولو أنهم مسيحيون فإن التعاونَ قد يكونُ ضدَّ مصالحِ الإنجليز..

ليس للهندوسِ خيارٌ إلا التعاونَ مع الإنجليزِ؛ لأن عَدَدَهم لا يتجاوزُ العشرةَ آلاف شخصٍ/ وليس لهم الاستمرارُ في البقاءِ وخيانةُ الإنجليزِ في نفسِ الوقتِ,/ لذلك كانوا الأشخاصَ المثاليين لإنجاحَ الخُطةِ وتقليلِ الأخطارِ التي قد تؤدي إلى إفشالِ الخُطة لأقلِ نسبةٍ ممكنةٍ./ وأصبحَ العملُ والإنتاجُ في تلك الأراضي الخصبةِ كأجيرٍ وعاملٍ من السكانِ المحليين/ هديةً وهبةً من قِبَلِ الإنجليزِ جادوا بها عليهم مقابلَ أجرةٍ سخيةٍ/ عبارةً عن دولارٍ واحدٍ فقط!../ نعم / لم تخطئوا في السماعِ/ الأجرةُ اليوميةُ دولارٌ واحدٌ فقط!/ ما رأيكم في النظام؟/ نظامٌ رائعٌ أليس كذلك؟
كيفَ لمنطقةٍ يُحصَد فيها الشاي **اثنتين وعشرين** مرةً أن يعيشَ فيها فقيرٌ؟! عندما سألتُ وعلمتُ بالجوابِ وقعتُ في حَيرةٍ شديدةٍ.
سبحانك يا رب!/ كيف لهذا القدرِ من الظلمِ وهذا القدرِ من التسَلُّطِ، أن يكونَ واقعًا في مثلِ هذا العصرِ،/ هل يُتصورُ أو يُقبلُ – بعد عِلْمِنا بهذا – أن نقولَ: إننا لا نعلمُ،/ أو ألّا نثورَ بهذه الحقيقةِ في وجوهِ الظالمين في هذا العالمِ ولا نُسمِعَ الإنسانيةَ والبشريةَ بهذا الظلمِ!
لو حاولتُ شرحَ كلِ الذي أعرفُه وسمعتُه ورأيتُه فلن تكفيَ الرسائلُ ولن تتَّسعَ له، / ويا ليتني أجدُ فرصةً لأصرخَ بأعلى صوتي وأُسمِّعُ العالمَ صيحاتي.
لم يغبْ عن بالي في أثناءِ كتابةِ هذا المقالِ/ أن البعضَ قد يتهمُني بالمبالغةِ في كلامي/ والبعضَ الآخرَ قد لا يؤمنُ بفكرتي وكتابتي هذه.
لقد بلغَ الحالُ بالمُسْتَعمِرين أنهم لم يستعمروا الأبدانَ والأوطانَ فقط/ بل استعمروا الأفكارَ والضمائرَ/ إلى أن وصلَ بهمُ الأمرُ أن جعلَهم هذا المستعمرُ الظالمُ مذهولين أمامَه/ مُعجَبين به/ مقلدين له./
لقد سمعتُ بالمقولةِ المشهورةِ:/ "قد يحبُ الغنمُ الذئبَ، وقد يعشقُ الإنسانُ جلّادَه"،/ ولكني لم أكنْ أعلمُ أنها تُعاشُ حقيقةً على وجهِ الأرضِ.
وهنا أريدُ إضافةَ قصةٍ ذكرَها لي أحدُ الأصدقاءِ/ تتعلقُ برئيسِ أوغندا الراحلِ عيدي أمين /ولكن قبل أن أنتقلَ لهذهِ القصةِ المعبرةِ/ أرجو منكم أن تسمعوا وتقرؤوا القصةَ في ضوءِ ملاحظةٍ قصيرةٍ/ وبعد ذلك تقومون بتقييمِ القصةِ/ :
[إن القوى الصهيونيةَ والإمبرياليةَ التي لطختِ العالمَ كلَه بالدماءِ التي سفكَتْها

اعتادت أنها إذا لم ترضَ عن نهجِ رئيسِ دولةٍ،/ أو أن خططَ دولةِ من الدولِ لم تكن كما تريدُ هذه القوى،/ فإنها تعلنُ على الفورِ عن رئيسِ تلك الدولةِ ديكتاتورًا وتخلعُه من حكمِه/ وتأتي برجلٍ آخرَ يحكمُ تلك الدولةِ،/ لقد وصفوا المرحومَ عيدي أمين – رئيسَ أوغندا السابق – أنه من أكلةِ لحومِ البشرِ وخلعوه من حكمه، وهذه القصةُ تتحدثُ عنه،/ وقد كتبَها الأستاذُ أحمد بُوزْلاَرْ،/ وهو متخرجٌ في جامعةِ أم القرى بمكةَ المكرمةِ، ولا يزال يعمل أستاذاً في استراليا:/

في بدايةِ الثمانينات 1980م،/ كان هناك مهرجانٌ تعريفيٌ عن تركيا/ بفندقٍ كبيرٍ في مدينةِ جِدة / وقد ذهبْنا إلى هذا المهرجانِ/ وكان بينَ الحضورِ مهندسٌ تركيٌ نعملُ وإياه في الشركةِ نفسِها،/ وكان هذا المهندسُ ممن ضعُف إيمانُه/ بل ربما لا إيمانَ له،/ سألني قائِلا:/ أيها الأستاذُ الموقرُ،/ أليس هذا الرجلُ هو عيدي أمين ؟/ فقلتُ له بعدما نظرتُ إلى تلك الجهةِ/ إنه يشبهه ولكنني لا أعلم إن كان هو أو لا,/ وبعد إصرارِ المهندسِ ذهبْنا إلى طاولتِه،/ ثم سأله صديقي المهندس:/ هل أنت عيدي أمين،/ وقد أجابَه قائلا:/ إن لم تُضيّفوني قهوةً تركيةً فلن أتكلم،/ أحسسنا بشيءٍ من الدفءِ في جوابِه وجلسْنا بجانبِه/ وما إن جلسنا حتى سأله المهندسُ – سؤالًا بلغَ الجرأةُ فيه – : لماذا شربتم دماءِ شعبِكم في فترةِ حُكمِكم؟/ فأجابه عيدي أمين – بكل هدوءٍ وسكينةٍ –: لأنه لم يكن عندنا قهوةٌ تركيةٌ، لذلك شربْنا الدمَ،/ استمرَ السيدُ المهندسُ بإظهارِ نفسِه عالمًا بحقيقةِ الأمرِ،/ وضحكَ من كلامِه،/ عندها قام عيدي أمين وضغط بيده على كتفِ المهندسِ/ وأجلسَه على الكرسي، وسألَه قائلًا:/ لماذا أنتم أيها الأتراك في قبرصَ قُمْتم بحفرِ المقابرِ الجماعيةِ/ ودفنتم الأطفالَ وكبارَ السنِ من النساءِ أحياءً في عام 1974م،/ رد المهندس غاضبًا:/ كلا لم نفعلْ ذلك/ إن من فعلَه هم القبارصةُ الرومُ،/ فرد عليه عيدي أمين – بكل شجاعةٍ وقوةٍ وبشدةٍ – :/ قلتَ لي كنتَ تشربُ دماءَ شعبِك/ وهذه عبارةٌ من أشدِ ما يمكنُ أن تحتقرَ بها إنسانًا ما،/ ومع هذا لم أغضبْ،/ فلماذا غضبتَ الآن من كلامي؟/ واستمرَ عيدي أمين بالنظرِ بغضبٍ لعدةِ دقائقَ إلى المهندسِ،/ ثم أضافَ قائلًا:/ أيها الشاب،/ لا تنسَ بأنَّ دولتي هي جنةُ الطيورِ،/ لقد عشتُ طُوالَ عمري بين شعبي ووسطِهم،/ لقد كان كلُّ من يأتي إلى زيارتي يأتيني بلحمِ طيرٍ، أو يأتيني بطائرٍ حيٍّ هديةً،/ هذه هي الهديةُ الوحيدةُ التي قبلتُها،/ وأكملَ حديثَه بنفسِ نظراتِه ونبرةِ صوتِه:/ حتى تلك العصافيرُ لمْ أشربْ من دمائِها.

ثم هدأَ فجأةً وقالَ بأسلوبٍ جميلٍ:/ قبلَ أن أكونَ رئيسًا كانَ المسلمونَ في أوغندا عبيدًا وخدمًا، وكانوا لا يُقبَلون في الأعمالِ الحكوميةِ،

لقد قمتُ برفعِ معدلِ الموظفين الحكوميين المسلمين إلى نسبةِ 80 % ،/ ولم تَقبلْ بريطانيا وأوربا بهذا فبدؤوا باختلاقِ الأخبارِ الكاذبةِ عليّ،/ يجبُ أن تعلموا أن كلَ خبرٍ يخرجُ من دولتي يذهبُ إلى لندن أولًا،/ وهناك يكيّفُونَه كما يشاؤون، ثم يأتيكُم الخبرُ كما أرادوا هم،/ وأيضًا الأخبارُ التي تخرجُ من تركيا تذهبُ أولًا إلى إسرائيل ثم إلى سويسرا،/ وهناك يكيّفُونها كيفما يشاؤون،/ ثم يصلُ الخبرُ إلينا كما أرادوا هم،/ وهذه الحالُ مستمرّةٌ إلى يومِنا هذا./

ثم قال:/ هيا أعطونا فنجانَ قهوةٍ تركيةٍ آخرَ،/ وسكتَ، فطَأْطَأْنَا رؤوسَنا معتذرين منه وانصرفنا..

سأضعُ خطوطًا عريضةً تحتَ جُملةٍ نَطَقَهَا المرحومُ عيدي أمين وسأكتُبها مرةٍ أخرى وأُنهي مقولتي..

" يجبُ أن تعلموا أن كلَ خبرٍ يخرجُ من دولتي يذهبُ إلى لندن أولًا،/ وهناك يكيفونَه كما يشاؤون، ثم يأتيكُم الخبرُ كما أرادوا هم،/ وأيضًا الأخبارُ التي تخرجُ من تركيا تذهبُ أولًا إلى إسرائيل ثم إلى سويسرا،/ وهناك يكيّفُونها كيفما يشاؤون،/ ثم يصلُ الخبرُ إلينا كما أرادوا هم،/ وهذه الحالُ مستمرّةٌ إلى يومِنا هذا./

رحمَك الله يا عيدي أمين وأَعْلَى درجتَك وغَفَرَ لَك..

هناك جيلٌ يستمعُ للرسالةِ التي قلتَها/ وإلى النصيحةِ التي أَسْدَيْتَها/ ويحاولون أن يعرقلوا خُطّةَ الشرِ ويضعوا العصا في العجلة كما وضعتَها وعرقلتَها./ هذا الجيلُ لم يبقَ ساكنًا دونَ حِراكٍ،/ بل يستمرُ من النقطةِ التي رحلتَ فيها،/ لم يَضِعْ مجهودُك هباءً../ ولن يستطيعَ الفِرَنْسيُّون أن يرقدوا دونَ أن يَطيرَ النومُ من أعينِهم/ وكذلك الإنجليز / لن يستطيعوا أن يأخذوا راحتَهم في كلِ ما يفعلون بإذن الله..

09 / 05 / 2020 م

أحمد ضياء إبراهيم أوغلو

ملاحظة:

من أراد أن يستمع للمقالة بالصوت والصورة فليضغط علي الرابط التالي

https://youtu.be/CR2FovaUOng